نوار نيسان ..
براعم ندية تركض خلف أحلامها

ميسرة أبو شعيب

أنامل صغيرة ناعمة كنعومة بتلات الزهور، بل كبراعم غضة تستمد علو مكانتها من صخب حياةٍ وبيئاتٍ مدرسية مهمشة لأحلام تلك البراعم الندية.

لن أنسى ذلك اليوم الذى كانت أيدي طلاب فصلي، ممن هم بعمر السابعة، تقلب المرح وتصنع الأمل وترسم البراءة، وتعلو وجوههم ابتسامات لم أرَ مثلها من قبل.

كان يوماً ربيعياً مشمساً حينما ذهبت لمديرة مدرستي وعرضت عليها فكرة إشراك طلابي بمهرجان نوار نيسان وأخذ الموافقة من الإدارة، لم تبدِ المديرة في البداية ترحيباً بالفكرة، بسبب خوفها على سلامة الطلاب وكيفية العودة، واشترطت أن أعيد الطلاب إلى بيوتهم بعد الانتهاء لضمان سلامتهم، وافقت على ذلك.

رجعت إلى الطلاب، وشرحت لهم عن المهرجان، واستمعت منهم ماذا يعرفون عن البحر؟ ما هي الخامات أو الأشياء الموجودة على شاطئ البحر التي نستفيد منها في الحياة اليومية؟ رسمت دائرة وكتبت في منتصفها شاطئ البحر، وبدأت معهم عصفاً ذهنياً.

كانت إجاباتهم كثيرة، كتبتها على السبورة. ثم سألت: ما الأشياء التي أحب جمعها عند ذهابي إلى البحر مع أسرتي؟ ماذا تفعلون بهذه الأشياء عند عودتكم إلى المنزل؟ كنت أستمع إلى براءة عفوية. إحدى الطالبات تكلمت عن صنع أدوات زينة لها من الصدف، وطالب آخر تكلم عن مساعدة والده في تزيين أطراف أحواض الزراعة التي في منزلهم بالصدف، وأخرى قالت أحب جمع الصدف الكبير الذى يكون على شكل قوقعة، لأضعه على أذني وأستمع لصوت هدير البحر.

صخبوا وضجوا .. الكل كان يريد التحدث، وكأنهم استرجعوا مغامرات جميلة مع البحر ... كان ضجيج أفكارهم وحكاياتهم جميلاً .. أحببته!

جانب من مشاركة الأطفال في فعاليات مهرجان نوار نيسان، غزة 2016.

وتحدث الطلاب عن أمور أخرى كفعلهم مع أسرهم على الشاطئ ... استمعت لهم واسترسلنا بالحديث، وكنت بين الحين والآخر أتوقف عند نقاط أرسخ أهمية البحر ووجوب المحافظة عليه، لما له من أهميةٍ تخص مرحهم ولعبهم.

وبعد أن ناقشنا الإجابات، استمعت إلى بعض الأفكار التي يحبون تقديمها في المهرجان، وآلية التنفيذ: تلوين الأصداف ولصقها على أول حرف من أسمائهم بالإنجليزية بحجم كبير، صنع برواز من الأصداف للوحة عنوان المهرجان، صنع قلادة، جدارية صغيرة ملصق عليها أشكال للكائنات البحرية، تقديم فقرة غنائية لأنشودة إحنا الربيع مع حركات راقصة.

وزعت ورقة موافقة الأهالي على طلابي لتوقيعها من أولياء الأمور، توضح الموافقة على ذهاب أبنائهم للمهرجان، ومشاركة الأهالي أبناءهم إن أحبوا.

وصلنا إلى المكان .. كان الجميع متحمساً للبدء وخوض هذه التجربة .. بدأ كل طالب يأخذ مكانه، تحدثت معهم في البداية عن الأشياء التي يحبون فعلها في المهرجان ... وبدأ العمل الجماعي، كان الطلاب قد أحضروا الأصداف البحرية، وكانت معظم أعمالهم: تزيين الأصداف بالألوان، أو إضافة مواد لامعة بواسطة إلصاقها بالصمغ، أو تعبئة حروف إنجليزية مفرغة كبيرة بالأصداف الملونة بواسطة الصمغ ... وصنع جدارية صغيرة من قص الكائنات البحرية من الورق المقوى وإلصاقها عليها. وبعض الطالبات قمن بتلوين أصداف بحرية وصنع قلادة جميلة.

من الأفعال السابقة تجلى لدى الطلاب روح التعاون، وزادت المحبة بينهم عند تقاسمهم الأغراض التي جلبوها معهم من ألوان أو صمغ وغيرهما. رأيت ابتسامات ومرحاً مع تعلم ومتعة، ثم تساءلت: لماذا لا نفعل نشاطات مثل هذا النشاط خارج أسوار المدرسة؟ نشاطات متكررة؟ متى نغير تعليمنا الروتيني القاتل؟

نوار نيسان فتح لي آفاقاً جديدة؛ لمستها ذلك اليوم حينما نزلت من السيارة متوجهة مع طلابي نحو بوابة المكان المقام به المهرجان. وحينها تذكرت منظر الأشقاء الثلاثة في الناحية المقابلة الذين تم قصفهم بواسطة المدفعية الحربية الإسرائيلية خلال الحرب الفائتة. كانت جريمتهم كبيرة، جريمة اللعب!

لماذا لا ندع أطفالنا يتعلمون باللعب؟ لماذا لا نخرج من سجن كبير اسمه قوانين ومدرسة؟ أطفال غزة يحتاجون لعباً تعليمياً تشاركياً يتجاوز قوانين الصرامة والتلقين، يحتاجون إلى شيءٍ يعيد لهم الأمان!

أتحدث هنا عن تجربة يوم ونتاج رائع حصدته في اليوم التالي عند العودة وقدوم بعض أولياء الأمور إلى المدرسة من الصفوف المجاورة .. حيث قال أحدهم وهو محاضر في الجامعة الإسلامية: ماذا فعلت أمس مع ابن أخي الموجود في صفك؟ ابنتي في الصف المجاور طوال الأمس تحدثت مع ابنة عمها، عن مهرجان كبير عن البحر؟ أريد منك إشراكها في أمور مثل كهذه.

سألت الطلاب عن شعورهم عند العودة إلى منازلهم؟ أردت أن أرى ردود فعلهم، فقالوا إنهم أحبوا النشاط، ويريدون تكراره، والبعض أضاف أنهم عند ذهابهم إلى البحر في الصيف سيجمعون الأصداف من أجل فعل هذه الأنشطة مع إخوانهم أو والديهم، والبعض قدم أفكاراً لم نفعلها بالمهرجان، كتلوين الرمل وحفظه بقوارير، فقد قال لي إنها فكرة أخته الأكبر سناً وسيفعلها خلال الصيف.

شعرت أن التلاميذ عرفوا فوائد خامات البحر أكثر وانتبهوا لأشياء لم تكن في حسبانهم.

مر الوقت سريعا ... فقرر الطلاب والطالبات تقديم فقرة غنائية مع الرقص ومع متعة لا تضاهيها متعة ... كانوا يصدحون بملء فرحتهم ... شعرت ذلك!

تفاعلوا بحب وود أثناء الغناء ... وعند الانتهاء قاموا بعرض أعمالهم بجانب الأعمال المعروضة للمجموعات، وكأنهم يتوجون شيئاً رائعاً فيه حب كبير.

ودّعوا المكان والتقطنا آخر صورة معهم؛ صورة لن أنساها أنا كمعلمة وإنسانة فهمت أكثر ما تريده روح الإنسان.

قبل المغادرة تفاجأت من طالب اسمه أبان، يفتش ويبحث عن شيء، فوجد حجراً مكتوب عليه فلسطين، طلب مني أن يحتفظ بالحجر كذكرى!

قبل أن يركب الجميع السيارة، وجدتهم ينظرون إلى المكان نظرات امتنان وحب وأمل وتفاؤل بأن القادم سيكون أجمل.

أما بالنسبة لي كمعلمة، فهذا النشاط علمني الكثير من الأشياء التي أضافت لي خبرات، وتركت لي علامات ونقاط انطلاق جديدة نحو الاتجاه العملي والتطبيقي والملموس، والبحث في الجوهر، وشحذ همة طلابي في السنوات القادمة لفعل نشاطات مشابهة، حتى وإن كانت فردية داخل المدرسة أو خارجها، فتذليل الصعوبات جميل، والوقوف في المناطق المقلقة لن يكون صعباً، لأن فيها صقلاً وإنتاجاً وبناء لأجيال المستقبل!!

غزة الابتدائية المشتركة «ج»